صدى اليامال

قراءة في سفينة التوثيق والإبداع لشعر عيسى بن محسن التاروتي.

لسلمان محمد العيد

حين يقع البصر على غلاف كتاب (صدى اليامال) لآلئ من شعر عيسى بن محسن التاروتي (١٢٥٥ - ١٣٥٣هـ)، للباحث الأستاذ سلمان العيد، الواقع في 280 صفحة من القطع المتوسط، فإننّا لا نكون أمام مجرد تصميم عابر، بل أمام نافذة بصرية ناطقة تختصر متن الكتاب بأكمله.

تتصدر الغلاف لوحة تعبيرية حية لـِ "نهام" يجلس وسط طاقم من البحّارة على ظهر سفينة شراعية، تكتنفهم أمواج الخليج وتحيط بهم سفن الغوص، بينما ترتسم في الأفق ملامح ليل هادئ يجلّ القمر وتتحلق حوله الذكريات. هذه الصورة الرمزية تمثل العتبة الأولى التي تأخذ القارئ بيديه لتعبر به الزمن، وتضعه مباشرة في قلب ملحمة الكفاح البحري والوجدان الشعبي الذي عاشه الشاعر عيسى بن محسن التاروتي، لتلخص ببراعة روح الإصدار وأجوائه قبل أن تُفتح صفحاته.

تفتتح الدراسة بتمهيد عميق يضع القارئ أمام هوية الشاعر باعتباره علماً بارزًا من مبدعي الشعر الشعبي البحري في الخليج العربي، ممن عاصروا مرحلة ما قبل استخراج اللؤلؤ الطبيعي وما بعدها.

يقرر المؤلف بحسّ توثيقي أن شعر التاروتي ومعاصريه يجسدون حقيقة الوضع الثقافي والاجتماعي لحقبة ما قبل النفط، معتبراً إياه "ظاهرة" شعرية استطاعت البقاء والخلود رغم أنّ جلّ مصادرها جاءت شفهية معتمدة على النقل والسماع. وقد اختار الباحث التحاشي عن الخلافات حول الشاعر، ومنها نسبة بعض المواويل، متجهاً مباشرة إلى جوهر الإبداع متمثلاً في الصور الفنية وملحمة مهنة الغوص بكل تفاصيلها الإنسانية.

يمكن القول وبكل موضوعية إن الفصلين الأول والثاني كانا من أبدع وأقوى ما كتب المؤلف وأثراها في هذا الإصدار، إذ شكلا ركيزة متينة لا يُشق لها غبار.

١) في الفصل الأول ، غاص الكاتب في تفاصيل حياة الشاعر ونشأته، مستعرضاً الخلاف حول اسمه ومولده، وصولاً إلى طفولته القاسية وحفظه للقرآن بكفالة والدته، مروراً بوصف دقيق للحياة العامة في العهدين العثماني والسعودي، ومهن الخليج كالفخار والبناء والزراعة، وصولاً إلى انخراطه في رحلات الغوص وطواقمها، بدءًا بالنوخذة ومهامه والغيص، والنهام ، وبعض المصطلحات البحرية ، كالهيرات والفطام و الثّقل، وشرح تفصيلي لدورة الحياة البحرية (من الدشة وحتى الردة،) ، وأنواع المحار واللؤلؤ.

٢) في الفصل الثاني (الشعر والغناء والروح النابضة)، حيث أبدع الكاتب في تصوير دور "النهام" ليس بوصفه مطرباً للسفينة فحسب، بل بوصفه بلسمًا لرفع المعاناة وكسر حدّة الغربة، ووحشتها ، وبثّ الحماس والنشاط. وقد برزت هنا خصائص التاروتي كنهام وشاعر يمتلك الصدق والقدرة على التأثير واحتلال القلوب، ليعرج المؤلف بعدها على "الموال" ، لارتباطه بالغوص ورحلاته، مع ذكر أنواع الموال (كالسباعي السيفي والأعرج، والمقرمل، والموال والخماسي، والرباعي، والذي أسماه بالمربوع والبوذية) وهذا خطأ ، لكون البوذية فن آخر له وزنه الخاص..

ثم علل المولّف أسباب تفاوت مواويل التاروتي زيادة ونقصًا ، بسبب ارتجاله لها ، ولعملية التناقل الشفهي عبر الزمن.

٣) أما الفصل الثالث، فقد مثّل محوراً جديداً وأبرز طموحات الكتاب الموضوعية، حيث تصدى فيه المؤلف لاستعراض الصور الفنية والمحسنات،

أ- كالمجاز المرسل بنوعيه المحلي والمكاني ، مستشهداً بمواله المنسوب إليه ، والذي مطلعه:

ما لوم أنا الدهر لو جرد سجاجينه

والموال الآخر الذي مطلعه:

الدهر لو زل زلاته كثيرة علي

والبين لملم جيوشه وكل قومه علي

تخسين يالغادره أنت وقومش علي

ب- التشبيه ، كقوله عن حمام تاروت:

حمّام تاروت يشبه صحن من الصين

ويشبه فتاة جميلة مكحلة العينين

ج- الاستعارة، وهي تشبيه حذف أحد طرفيه، وهي ماثلة في مواويل التاروتي، كقوله:

ريم تبسّم تنثّر مبسمه ليلي

وجنات خدّه كما التفاح يا ليلي

سلبت جناني وعقلي وآه يا ويلي

فهو في الشطر الأول يشبه محبوبته بالريم(الغزال) ، وقد حذف المشبه وذكر شيئًا من لوازمه وهو التبسّم، واستعارته الأخرى في الشطر الثاني حيث شبه وجنات محبوبنه بالتفاح.

د- ولكن، من الناحية المنهجية النقدية الصارمة، يُعاب على هذا الفصل بعض التداخل والخلط الاصطلاحي، ولا سيما في باب "الجناس"؛ إذ أُدرج الجناس ضمن الصور الفنية مع أنه من المحسنات البديعية، ووقع خطأ في تصنيف الجناس المحرّف باعتباره تاماً، وفي تحديد الجناس المردوف بزيادة الحرف في آخر الكلمة لا أولها، كما ذكر، فضلاً عن ذكر أنواع كالجناس اللاحق والمطلق والاشتقاق والقلب دون تحرير دقيق أو إيراد شواهد تاروتية لها. ولو أن الكاتب تمهل في هذا الفصل وأعطاه حقه من المراجعة والتدقيق، لصار قطعة فنية متكاملة تضاهي إبداع الفصلين الأول والثاني.

أما بقية الفصول فجاءت، لتغطي مساحات واسعة ومتنوعة من حياة الشاعر وموضوعات عصره، وهي وإن كانت تتسم بطابع العمومية مقارنة بفرادة الفصول الأولى، إلا أنها رسمت لوحة متكاملة لشخصية التاروتي.

٤) في الفصل الرابع (الحب والعذريّة)، حيث أبرز الكاتب هيمنة الحالة العذرية الصادقة على شعر

التاروتي، فجاء غزله خالياً من الصور المجسدة، وصادقاً في التعبير عن ألم الفراق والحرمان ومعاناة الجماعة، متألقاً بشاهده الخالد:

أجمال صبري على دار الحبيب أبراك

ومن المدامع عيوني ترّسن أبراك

يا أريش العين عيني في الدجى تبراك

٥) في الفصل الخامس (الشعر الديني والتحول الروحي) فقد استعرض الكاتب تحوّل الشاعر من ترنيمات الغزل، كقوله في فتاة أسماها (هشوم):

هشّوم يا جيرتي ويش الجرى منّك

إلى رحاب التدين والتوبة بتأثير من الشيخ عبد ا المعتوق. ومن هنا تفتق شعره عن مناجاة خاشعة، ومدائح نبوية، وحسينية، واستهلالات شجية لشهر محرم وأجواء الظعون، من أبرزها:

يا رب مالي سواك أحد من الناس

تعلم بحالي وتفرج لي بونّاس

وكذلك قوله في مدح العترة:

أمسيت أنا أقول مدحي في النبي وآله

وقوله:

قصدي أزورك علي في ذا العمر مرّات

وقوله في هلال شهر المحرم:

يا هلال هلّيت واشغلت النبي بالهم

وقوله في مطلع موّال آخر:

يهلال في وين فارقت الظعون تسير

وقوله في مطلع آخر:

من هل عاشور هلّت دمعتي جاريه

٦) في الفصل السادس (المجتمع ونقده)، حيث تناول الكاتب تبرّم التاروتي من بعض السلبيات الاجتماعية ، كأزمة الصداقة، فيقول:

ميزان لصحاب مايل والعذال بعيد.

والانزواء، فيقول:

أصحاب هاليوم لا بالخير تسعى لهم

وقد أحسن المؤلف في استدراكه النقدي مبيناً أنّ المجتمعات ليست زاكية بالمطلق، وأن لغة الشعراء تتسم أحياناً بالمبالغة التحذيرية لتقويم الاعوجاج ومنع انتشار الرذيلة.

٧) في الفصل السابع (التاروتي وسنة الطبعة)، حيث ختم الكتاب بتوثيق مؤلم وعظيم لِـ "سنة الطبعة" عام 1344هـ (أو السايبة)، ذلك الحدث المدمّر الذي أودى بسفن الغوص وأرواح البحّارة.

والطبع في اللهجة الساحلية لدول الخليج تعني الغرق.

وقد استعرضت هذه الحادثة في كتابي المطبوع باسم (ديوان الكاشون) ، وبيّنت أن لفظ (الطبع) عربي

فصيح وإن استخدم في ساحل الخليج على أنه مفردة عامية، فلو عدنا لما قاله الشاعر الجاهلي لقيط بن يعمر الإيادي محذّرًا قومه من عدوّهم في قصيدته العينية. لوجدناه قد استخدم مفردة الطبع بمعنى الغرق، فيقول:

إنّي أراكم وأرضًا تعجبون به

مثل السفينة تَغْشى الوَعْثَ والطّبَعَا

وقد خلد التاروتي هذه الفجيعة بموّاله الناطق بالألم:

يا هي سنة سنّت علينا بجورها

واجفت

وحقوق غلها علينا الغادرة واجفت

واسعود ليّام مر ابها الصبر واجفت

وممن وثّق هذه الحادثة الشاعر حمد الحمود، فقال :

يا ليلةٍ صار فيها الويل والصايح

هذا غريق وهذا نادب صايح

با ما سُفُن شلّها الطوفان بالصايح

فرّت عقول الخلق وِتْفاررت داويه

جم حرّةٍ من خِدِرْها فرّعت داويه

تنشد عن اهلٍ لها وعقولهم داويه

جاوبْتِ ما جاوبوها غير بالصايح

ومما قلته بعد مرور مئة عام على هذه (السايبة):

يا صاح سجّل معي عن وقعة السايبه

واِذْكر فرار البشر جنها ابفلا سايبه

كلمن بحاله انشغل واقرب محب سايبه

مِيّة سنه يا هلي من مرّت الطبعه

تاربخها في دمي ملزوق كالطبعه

منساها تدري الوفي ميغيّرن طبعه

ذكرى برغم الأسى توحي ابجمع سايبه

إن كتاب "صدى اليامال" لسلمان العيد يُعد بحق إضافة للمكتبة الشعبية والتوثيقية ، ومرجعاً حيّاً ينبض بملحمة البحر والشعر.

قد نجح المؤلّف في إحياء ذكرى شاعر كبير بحجم عيسى بن محسن التاروتي، مقدماً وقفة وفاء لأجداد كافحوا بين أمواج اللؤلؤ ووحشة الفراق، لتظل هذه القراءة تحية إجلال لهذا الإصدار الذي حفظ لنا لآلئ اليامال من الضياع.